الفضاء الحسيني الرحب
في شعر مهدي جناح الكاظمي

م.م. أحمد جاسم ثاني
جامعة البصرة/ كلية التربية للعلوم الإنسانية

يكاد أن يتفرّد الشاعر الأديب مهدي جناح الكاظمي عن غيره من الشعراء الحسينيين المعاصرين بسعة الخيال ورحابة الفضاء الشعري، إذ يمتاز شعره بتصوير فني بالغ في الروعة والجمال، وأسلوب أدبي غاية في الرقة والإبداع، مما يجعل المتلقي يتعايش مع حالة العاشق الذي ينطق بقلبه قبل لسانه، ويسطّر الكلمات بأنفاسه قبل قلمه، ويصوّر المعشوق تصويراً دقيقاً واسع المدى، مما ينتج لوحات فنية ربما يعجز عنها كل فنان مهما حاول أن يحاكي التجربة، ويروي الواقعة.

وحينما نتصفح ديوانه (تعلمتُ من الحسين) تطالعنا هذه اللوحات الجميلة بأجلى صورها، مؤطرة بأجود الأساليب الفنية المجازية كالتشبيه والاستعارة والتمثيل والاقتباس والتضمين وغيرها، فضلاً عن فنون تعبيرية ودلالية أخرى. ففي إحدى قصائده التي يتجول فيها بين رحاب آل محمد "ع" يقول[1]:

ورحـــــتُ لكـــــربلاء أســـــألُ النحـــــرا
جـــرى فـــي الأرضِ نهـــراً أنبـــتَ الزهـــرا
حســـينٌ عـــادَ فيهـــا مـــرةً أُخـــرى
وعـــادَ الجـــرحُ ســـيفاً يصـــنعُ النصـــرا
لقـــد قتـــلَ الحســـينُ بنحـــرهِ الشـــمرا

فيصف نحر الحسين "ع" بالنهر الذي روّى أرض كربلاء بدمائه الزكية، ليبقى خط الشهادة منهجاً للأحرار، فعرّف الجرحَ بالسيف، وهي صورة تمثيلية رائعة، أتمّها بعبارة: (لقد قتل الحسينُ

بنحره الشمرا)، وهي صورة أروع من سابقتها، جسّدت معنى النصر الحقيقي، وهو انتصار الدم على السيف، وعلى ما يبدو أنها صورة مقتبسة من قول الشيخ الوائلي[٢]:

ظنـوا بـأن قتـل الحسـينَ يزيـدُهم لكنمـا قتـل الحسـينُ يزيـدا

وفي مقطوعة أخرى نجد الوصف الحسيني متمثلاً بالحديث عن ذات الشاعر وانطباعه عن معشوقه، إذ يصوّره بدقة فنية عالية فيقول[٣]:

أنـا بالحسـينِ الـوتر لـذتُ بشـافعٍ للمـذنبين ومثلـه لا يوجـدُ
محـرابُ تسـبيح الضـمير جراحُـهُ وهـواه سـلطان القلـوبِ وسـيّدُ
متـدفقُ الشـريان يـنعم بـالظمى بحـرٌ وفـيضُ جراحـه لا ينفـدُ

فنجد الصورة المجازية مركّبةً في الشطر الأول من البيت الثاني، إذ وصف جراح الحسين "ع" بمحراب تسبيح الضمير، فالصورة الأولى هي صورة تمثيلية (الجراح: هي محراب)، والصورة الثانية صورة استعارية (تسبيح الضمير)، إذ جعل للضمير تسبيحاً ونسب إليه المحراب، فاستعار ما هو محسوس لما هو معقول، ويستمر التصوير الفني في الشطر الثاني: فالهوى الحسيني سلطان القلوب، وهو تعبير عن حبه للحسين "ع" الذي ملك قلبه ومشاعره وقلوب كل العاشقين.

وفي البيت التالي يتوسّل الشاعر بفن المقابلة بين صورتين: صورة التضحية الحسينية والجود بالنفس (متدفق الشريان) وهي صورة رمزت للشهادة، وصورة الظمى والعطش الذي احتل مساحة واسعة من معاناة الحسين "ع" في عاشوراء، ومثّل صورة بارزة من صور اللوعة والمأساة، فثمة تقابل بين (التدفق/ والظمى)، ومن جانب آخر نلاحظ أن الشاعر ربما يلجأ إلى الإنزياح، كما في عبارة: (ينعم بالظمى)، فالمعروف أن النعيم يستعمل مع الراحة والسعادة، وربما أراد من هذا الإشارة إلى حالة الإمام الحسين "ع" الذي ذاب في حب الله تعالى وقدّم كل ما يملك من أجل إرضائه. وفي السياق نفسه يصفه بالبحر وفيض جراحه لا ينفد، وهي صورة تشبيهية ضمنية، فكما أن البحر لا ينفد ماؤه كذلك هو الحسين وتضحيته وعطاؤه باقٍ مخلّد لا ينفد، يبعث في عشاقه روح الثورة ورفض الظلم والجور.

وفي قصيدة يخاطب الشاعر ذاته قائلاً[٤]:

وإذا وصـــــلتِ إلـــــى الحســـــينِ ولاحَ فـــــي دمـــــهِ الطهـــــورِ
طـــــوفي بـــــربِّ التضـــــحياتِ وحـــــــولَ عـــــــرشِ الله دوري

فيصوّر الإمام الحسين "ع" بأنه ربّ التضحيات، وربّ كل شيء أصله وملكه وسيده، فيأمر النفس بأن تطوف قبره الذي عبّر عنه في الشطر الثاني بأنه عرش الله تعالى، وهي معانٍ تدل على سعة الخيال الشعري، وهو تعبير مناسب لمقام الإمام الحسين الذي قدّم كل شيء لله تعالى فأعطاه الله كل شيء. والطواف من مفاهيم الحج ومكة المكرمة، فهو يربط بين منزلة الحسين ومنزلة الكعبة التي تقع تحت العرش – كما في بعض الروايات – وتمثّل مركز الأرض، ومن جانب آخر فإن الإمام الحسين قد حفظ حرمة البيت وخرج من مكة قاطعاً حجه بعدما علم بنوايا الأعداء الذين أصرّوا على قتله وإن كان متمسكاً برداء الكعبة، وربما يكون الشاعر قد أفاد من هذه المعاني كلها. ومثل ذلك قوله في مكان آخر[٥]:

وطفُّـــــــكَ الخلـــــــودُ والليـــــــلُ والنهـــــــارُ
يطوفُـــــــكَ الوجـــــــودُ لأنـــــــك المـــــــدارُ

والطفّ من أسماء كربلاء، ناله التطور ليدل على ما وقع في يوم عاشوراء، فالشاعر حينما عرّف الطف بأنه الخلود، جاء بصورة تمثيلية واسعة الفضاء، وزادها سعةً حينما عطف عليها صورتي الزمان (الليل والنهار) إشارة إلى حالة الخلود والأبدية للقضية الحسينية، وفي البيت التالي يتسع الفضاء أكثر بالصورة المجازية حينما جعل الوجود بأكمله يطوف حول الحسين لأنه هو مدار الوجود، فيالها من صورة رائعة وياله من خيال رحب!

وليس ببعيد عن هذه المعاني، فإن الشاعر كثيراً ما يربط بين اسم الحسين "ع" ولفظ الجلالة، فقد ينسبه إلى الله تعالى ويضيفه إليه بصريح القول ويصفه بعظيم الوصف، من ذلك مثلاً[٦]:

هـــاتفٌ طـــلَّ ســـماويُّ الصـــدى يـــا حســـينَ الله جـــاوزتَ المـــدى

وفي قوله أيضاً[٧]:

يـــا حســـينَ اللهِ نهـــديك الســـلاما أيهـــا المصـــباحُ أفزعـــتَ الظلامـــا
يـــا صـــــراطَ اللهِ ديـــنُ الله لـــــو لـــم تهبْـــه النحـــرَ يومـــاً مـــا اســـتقاما

وفي عبارتي: (أيها المصباح)، و(يا صراط الله) تضمين قرآني من قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ...﴾ (النور/٣٥). وقوله تعالى: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ...﴾ (الشورى/٥٣).

كما يمكن ملاحظة ظاهرة التكرار لبعض الألفاظ والتركيز عليها في أغلب القصائد الحسينية للكاظمي، منها: (الدم/ والتسبيح/ والعرش)، كما في قوله[٨]:

يـــا أبـــا الأحـــرار بـــالنحر الـــذي دمـــــه للعـــرش تســـبيحاً تنـــامى

وهي صورة رمزية بالغة الجمال تعبّر عن عروج دم الحسين "ع" إلى السماء، مستوحاة من المشاهد العاشورائية الأليمة، فالحسين حينما رمى دم الرضيع ودمه الطاهرين لم تسقط منه قطرة إلى الأرض.

ولا ينفك الكاظمي من استعارة الألفاظ الإسلامية وما يتعلق بالقرآن والعقيدة مثل: (الوحي/ والتنزيل/ والتأويل/ والرسالة/ والرسول) إذ نجد ذلك واضحاً في قصيدته "قل ما تشاء" التي جاء في مطلعها[٩]:

قـــل مـــا تشـــاء فقولـــك التنزيـــلُ ودمٌ جـــرى مـــن نحـــرك التأويـــلُ
سبحات وجهك فـي السماء تنهّدت وســـرى بهـــنَّ شـــرائعاً جبريـــلُ
تسقي الظمـاء وأنـت يسقيك الظمـى وضـــمائراً تُحيـــي وأنـــت قتيـــلُ
ومبشـــــرٌ وجراحـــــه ســـــمّاره فـــي كـــل جـــرحٍ أمـــةٌ ورســـولُ

فكل من (التنزيل/ والتأويل/ والشرائع/ وجبريل/ وأمة/ ورسول) هي ألفاظ ومفاهيم أساسية في البناء الإسلامي المتين، استمدّها النص من عقيدة الشاعر الراسخة؛ لتمنحه فضاءً رحباً وسعة وعمومية، وهي ظاهرة مؤتلفة مع عالمية القضية الحسينية المقدسة، وكلها حاضرة في فكر الشاعر الحصيف.

وفي البيت الثالث يوشح الشاعر نصه بفن المقابلة بين صورتين؛ صورة الكرم والعطاء الحسيني وصورة المعاناة والألم التي تجرّعها أبو لأحرار "ع" وفي مقدمتها ظاهرة العطش ومنع الماء عن معسكره: (تسقي الظماء/ وأنت يسقيك الظمى)، كما قابل في الشطر الثاني بين صورتي الحياة والقتل: (وضمائراً تُحيي/ وأنت قتيلُ)، مشيراً إلى أن الشهيد ليس بميت وإنما هو حيٌ يمدنا بالحياة، حياة الضمير والقلب والفكر التي هي أهم من حياة الأبدان.

ومن جميل الصور الفنية الحسينية التي امتلكها الكاظمي وتصرّف بها طوع راحته قوله[١٠]:

يـــا جـــاعلاً دَمَـــهُ الطهـــورَ رداءَهُ وحســـامَه القـــرآنَ حـــينَ يصـــولُ

فالتصوير هنا باستعارة الرداء للدم وهو وصف لحجم الدماء الزكية التي سالت من الحسين "ع" من كثرة الجراحات التي تلقاها الجسد الطاهر، كما استعار القرآن للحسام الذي يصول به، وهي إشارة إلى تجلي القرآن الكريم في واقعة كربلاء، وما كان يردده الإمام في المعركة من القرآن في كل موقف وموطن ومناسبة.

ومن صور اتساع الخيال ورحابة الفضاء قوله أيضاً[١١]:

كـلُّ العـروش إلـى ضـريحك أذعنـت وإليـــكَ يســـعى التـــاجُ والإكليـــلُ
وإزاءَ قامتِـــك المديـــدة تنحنـــي هـــامُ الوجـــودِ وفـــي ذراك تقيـــلُ
وتطيعـــك الأقـــدارُ وهـــي عصـــيةٌ ولـــك القضـــا يُصـــغي وأنـــت تقـــولُ
لـــكَ أنـــتَ ســـلطانَ الزمـــانِ ورمـــزه مـــا لاحَ فـــي كـــل العصـــورِ مثيـــلُ

فهذا التعميم في عبارة (كل العروش) وصورة (انحناء هام الوجود) وصورة (طاعة القدر والقضاء) فضلاً عن عبارة (سلطان الزمان) و(انتفاء المثيل)، كلها تفضي بالنص الشعري إلى الانفتاح على الفضاء الحسيني الرحب الذي تجوّل فيه شاعرنا وصوره خير تصوير.

الهامش:

---

[١]- تعلمت من الحسين، مهدي جناح الكاظمي: ١٣/٣.

[٢]- ديوان الوائلي، الدكتور الشيخ أحمد الوائلي: ١١١.

[٣]- تعلمت من الحسين: ٢٠/٣.

[٤]- المصدر نفسه: ٢١/٣.

[٥]- المصدر نفسه: ٤٢/٣.

[٦]- المصدر نفسه: ٣٧/٣.

[٧]- المصدر نفسه: ٣٥/٣.

[٨]- المصدر نفسه: ٣٥/٣.

[٩]- المصدر نفسه: ٤٣/٣.

[١٠]- المصدر نفسه: ٤٤/٣.

[١١]- المصدر نفسه: ٤٤/٣.